الأهرام

المصدر: الاهرام

التاريخ: ١٣ مايو ٢٠٠٤

فضيحة «أبو غريب».. وإعادة فتح الملفات!

لو أن الرافضين للحرب فى العراق أنفقوا مليارات الدولارات لتمويل حملة دعائية ضخمة هدفها تعرية الأهداف والمقاصد الأمريكية منها، وإعادة التأكيد على عدم مشروعيتها اعتمادا على الحجج القانونية والسوابق التاريخية، لما استطاعوا أن يحققوا ذلك الذى تحقق - وبأيد أمريكية - فى سجن أبو غريب، وأدى إلى انكشاف المستور وإثبات صحة الحقيقة التاريخية التى تقول: إن «أنانية المحتلين وسيطرة مصالحهم الذاتية على قراراتهم تظل أقوى وأرسخ من أى قيم حضارية وإنسانية، لأن الاحتلال فى حد ذاته يمثل أبشع نموذج للاعتداء على الحضارة وامتهان الإنسانية».

أريد أن أقول: إن الذى نتحدث عنه الآن - ويتحدث عنه العالم أجمع بما فى ذلك المجتمع الأمريكى ذاته - أكبر من أن ينظر إليه على أنه كارثة أخلاقية تثير الاشمئزاز وتستدعى الشفقة على أولئك الذين جرحت كرامتهم بممارسات بغيضة، بلغت حد الإذلال الجنسى للمعتقلين العراقيين الذين دفعوا ثمنا باهظا لقبح مريض مارسه ضدهم جنود ليسوا فقط مرضى بالسادية البغيضة، وإنما هم أيضا ضحايا ثقافة الاستعلاء والتمييز!

إن الذى جرى فى سجن أبو غريب وغيره من السجون العراقية قد أسقط الورقة الأخيرة من شجرة المبررات الواهية لدوافع الذهاب إلى الحرب فى العراق، وأسقط معه كل شعارات الحرية واحترام حقوق الإنسان وإعلاء مكانة المرأة، وهى ذات الشعارات المضللة التى قيل إنها عنوان مبادرة الإصلاح الأمريكية التى تحمل اسم «الشرق الأوسط الكبير».

إن ما جرى جاء متناقضا تماما مع شعارات الحرية والديمقراطية التى بشرت بها أمريكا شعوب المنطقة باسم «النموذج العراقى» الذى سوف تحتذى به كل دول المنطقة مستقبلا.. وجاء فى الوقت نفسه متناقضا مع مواثيق حقوق الإنسان، واتفاقيتى جنيف الثالثة والرابعة عام ١٩٤٩ اللتين حظرتا جميع أعمال العنف ضد حياة الإنسان وشخصيته، سواء بالقتل أو التعذيب أو المعاملة القاسية أو الاعتداء على الكرامة والشرف أو المعاملة المشينة المزرية التى تؤدى إلى التحقير!

لقد ظهرت السياسة الأمريكية على حقيقتها ولم يعد بالإمكان أن يشار إلى أمريكا كحامية للحريات وراعية لحقوق الإنسان ومهمومة بنشر الديمقراطية، وإنما ظهر شىء آخر تماما يكشف عن سياسة عدوانية تستهدف السيطرة على العالم من خلال القوة العسكرية والضغط السياسى والاقتصادى لتغيير الأنظمة وفرض نماذج معلبة للإصلاح دون مراعاة ظروف وثقافة كل دولة على حدة!

والذين وقفوا بالتأمل العلمى والسياسى الدقيق لأبعاد ما جرى فى سجن أبو غريب لم يتوقفوا فقط أمام بند انتهاك حقوق الإنسان الذى تحتل فيه الولايات المتحدة الأمريكية المرتبة الأولى فى العالم بجدارة قياسا على عدد الضحايا المدنيين الذين سقطوا فى حروبها المختلفة، وإنما توقفوا أمام ذلك الخيط الذى يربط بين انتهاكات حقوق الإنسان، وبين إصرار أمريكا على مواصلة انتهاك القوانين الدولية وعدم القبول بتطبيق العديد من الاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان ومحاكمة مجرمى الحرب، والرقابة على الأسلحة غير التقليدية وحماية البيئة.

وبالنسبة لأمتنا العربية والإسلامية فإن التوقف كان طويلا ومريرا من خلال الربط بين انتهاكات حقوق الإنسان فى العراق وإهدار آدميته، وبين ذلك الذى يجرى فى فلسطين على يد شارون وبدعم وتأييد أمريكى رسمى صريح، وصل إلى حد المصادقة على حق إسرائيل فى ابتلاع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى، وليس مجرد حماية إسرائيل من أى عقوبات دولية بسبب جرائمها!

●●●

والحقيقة أن أمريكا نجحت فى قصف العراق بأفظع ما فى الترسانة الأمريكية من صواريخ وقنابل، لكنها فشلت فى قصف المنطقة بأسرها بشعارات الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.. بل إن البعض بدأ يتساءل - وله كل الحق - حول ما لم يظهر بعد من أهداف ومقاصد أمريكية أخرى فى المنطقة!

بأى وجه يمكن لأمريكا أن تخاطب شعوب المنطقة وأن تعاود الترويج لدعواتها المزعومة حول الإصلاح والتحديث!

إن النموذج العراقى الذى بشرونا به لم يدع لأحد مجالا سوى الشك والحذر والتوجس من أى طرح أمريكى يتعلق بالمنطقة فى أى مجال من المجالات!

كيف يمكن أن يصدق أحد أن أمريكا هى التى ستحمل إلى المنطقة «روشتة» الديمقراطية، بينما واقع الحال يناقض ذلك تماما ويؤكد صحة المقولة الشعبية بأن «فاقد الشىء لا يعطيه»!

وحتى أولئك السذج الذين هللوا لبعض عبارات الأسف التى صدرت عن الإدارة الأمريكية بشأن

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

ما جرى فى سجن أبو غريب ليس بمقدورهم أن يشككوا فى أن سجون «بول بريمر» لم تكن أفضل حالا من سجون «صدام حسين»!

نعم.. من الذى بمقدوره اليوم - مهما بلغ حجم الولع والعشق فى نفسه لأمريكا - أن يتحدث عن الطهارة الأخلاقية فى السياسة الدولية باعتبارها العنوان الأبرز فى الخطاب السياسى الأمريكى الذى حشد العالم كله خلف أهداف نبيلة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر باسم الحرب ضد الإرهاب!

إن أحدا لم يعد بإمكانه - لفترة غير قصيرة - أن يمارس دور الموزع الرئيسى للسلع الدعائية الأمريكية فى المنطقة لأنها أصبحت سلعا راكدة ومرفوضة بغير أى دعوات للمقاطعة!

●●●

وإذن ماذا؟

لقد كان الادعاء بتحرير العراق من دكتاتورية نظام صدام حسين هو الإنجاز الوحيد الذى يمكن تسويقه فى العالم كمبرر للحرب بعد أن سقطت الذرائع الأخرى، فإذا بصور الجنود الأمريكيين - وكذلك المجندات الأمريكيات - فى سجن أبو غريب تسحب البساط من تحت أى متحدث عن إنجاز الحرية، وتكشف عن قبح الخلل الأخلاقى فى المؤسسة العسكرية للقوة العظمى فى عالم اليوم.

ثم إن تقارير حقوق الإنسان التى تصدر سنويا عن الإدارة الأمريكية لترصد بعيون أمريكية ما تعتبره انتهاكات فى مختلف دول العالم قد فقدت أهميتها وقيمتها قياسا على ذلك الذى شاهده العالم كله عن وقائع التعذيب والإهانة والتحقير فى سجن أبو غريب!

وإذا كان الرأى العام الأمريكى - الذى شعر بالصدمة من هول ما رأى - قد انطلت عليه بعض كلمات التبرير للفضيحة التى وردت على لسان الرئيس بوش خصوصا قوله إن «هذه ليست أمريكا» فإن ذلك لم ينطل على أحد فى العالم كله لأن هذه هى أمريكا التى يعرفها العالم حق المعرفة!

إن الرأى العام العالمى يصعب عليه أن يبتلع بسهولة قول الرئيس بوش بأنه شعر بالاشمئزاز عندما فوجئ - على حد قوله - بتلك الصور الفظيعة التى أذاعتها شبكة «سى. بى. إس» التليفزيونية الأمريكية عن وقائع التعذيب، والإهانة البشعة فى سجن أبو غريب!

لقد فات على الرئيس الأمريكى أن الرأى العام العالمى عامة والعربى خاصة قد تساءل بينه وبين نفسه .. كيف لم يشعر الرئيس بذات الاشمئزاز وهو يرى - مثل كل الدنيا - صور قوات الاحتلال على مدى عام كامل، وهى تمارس الإذلال والإهانة فى شوارع بغداد وليس خلف قضبان أبو غريب؟!

وأيضا فإن السؤال الأهم عربيا ودوليا هو:

لماذا لم يفكر الرئيس الأمريكى - مجرد تفكير - فى إجراء تحقيق بشأن ما نشر وأذيع على مدى عام كامل من روايات تتحدث عن جرائم الخطف والاغتصاب التى أصبحت ظاهرة مرعبة فى العراق، منذ وطئت أقدام جنود أمريكا أرض الرافدين؟!

●●●

خلاصة القول: إن ما جرى فى سجن أبو غريب كان فى مجمله لمصلحة الذين عارضوا الحرب فى العراق، ووضع الذين لا يزالون يصرون على جدوى ومشروعية هذه الحرب فى مأزق صعب!

إن دعاة الحرب فى العراق كانوا يتمسكون برهان التحرير والديمقراطية وحقوق الإنسان، ويزعمون أنهم نجحوا فى تخليص العراقيين من نير الاستبداد كخطوة على طريق بناء عراق جديد، ترفرف فوق سمائه أعلام الحرية والديمقراطية وتجعل منه نموذجا ينبغى على دول المنطقة أن تحتذى به.. ولكن هذا الرهان سقط وتهاوى ولم يعد له محل من الإعراب!

وإذا قيل إن الدعاية الأمريكية سوف تركز - اعتمادا على آلياتها الرهيبة - على القول بأن ما جرى أمر لا يعبر عن طبيعة وأخلاق الشعب الأمريكى، وإنه مجرد سلوكيات فردية مريضة قامت بها قلة لا تعكس أخلاقيات الجيش الأمريكى، فإن ذلك قد تبخر قبل إطلاق قذائفه الأولى بعد أن أكدت بعض التقارير الرسمية الأمريكية التى نشرتها الصحف الأمريكية أن التعذيب كان يتم بأوامر صريحة وبعلم قيادات عسكرية واستخبارية عليا، بدعوى ضرورة ذلك لإذلال المعتقلين وكسر إرادتهم لانتزاع المعلومات التى بحوزتهم!

وليس خروجا عن السياق الذى كنت أتحدث فيه منذ السطر الأول فى هذا المقال، أن أتوقع أن يكون ملف التعذيب والإهانة والتحقير فى سجن أبو غريب ليس هو الملف الأخير فى التجاوزات والفظائع الأمريكية فى العراق.

وإذا جاز لى - فى حدود حق الاجتهاد - أن أتنبأ بالملف المقبل الذى ربما يكون هو الأهم والأخطر، فإننى أعتقد أنه سوف يكون ملف اغتيال العلماء العراقيين أو تهجيرهم للخارج، تحت أصعب ظروف الابتزاز والتهديد!

ولكى لا يتهمنى أحد بالادعاء بما هو غير صحيح، فإننى أستشهد بما قاله أحد أعضاء مجلس الحكم العراقى الموالى تماما لأمريكا - قبل أيام - على شاشة إحدى الفضائيات العربية بأن هناك مؤامرة عالمية لإفراغ العراق من العلماء والمفكرين، وأنه تجرى عمليات اغتيال وخطف لهم على يد تنظيمات قادمة من وراء الحدود!

وعلى الرغم من أن أحدا لم يحدد بعد هوية هذه التنظيمات، فإن روايات عديدة من داخل العراق تتحدث عن دور مباشر فى ذلك لعناصر الاستخبارات الأمريكية، وعناصر الموساد الإسرائيلى!

وعلينا أن نترقب بالدرس والتأمل أبعاد محنة العراق التى هى أكبر وأعمق من ذلك الذى أدمى قلوبنا عن سجن أبو غريب، خصوصا بعد أن اتسعت دائرة الاتهام وتوافرت الأدلة على تورط الجنود البريطانيين فى جرائم مماثلة فى سجون «البصرة»!

وبذلك لم تعد إدارة بوش وحدها فى قفص الاتهام، وإنما انضمت إليها حكومة تونى بلير التى لم تبرأ بعد من ملف الذهاب إلى الحرب، فدهمتها وقائع التعذيب المشينة!

مرسى عطا الله

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية